

الفكر الديني

بين الجوهر والتصورات

أ.م.د. رؤوف أحمد الشمري
جامعة الكوفة / كلية الفقه

تمهيد

ليس الفكر معلقاً في فراغ، وهو لا يأتي من فضاء، إنما هو ثمرة التفاعل الإنساني مع وقائع الحياة وأحداث التاريخ. فهذه الوقائع والأحداث لا تجري في خط منعزل عن الإنسان ومنفصل عن فاعليته، كما لو كانت هي الإنسان خطين متوازيين، لا يتأثر أحدهما بالآخر. إنها تترك في الإنسان أثراً، ثم يعود الإنسان - وقد تأثر بها - ليؤثر فيها، على درجات متفاوتة من التأثير والتأثير واختلافات متباينة بين فرد وفرد ومجتمع ومجتمع وعصر وعصر.... وما إلى ذلك. من هذه الإحالة بين الاثنين ينشأ الفكر، الذي يعدّ - على نحو ما - نتاج الوقائع والأحداث، ثم تحدث هذه فتعدّ - على نحو ما - أثراً من آثار الفكر. وإذا كان للأفكار قوة تسلسل خاصة بها، كما أنّ للألفاظ قدرة توالد خاصة بها كذلك، فإنّ من مقتضى هذه القدرة وتلك القوة أنّ الفكرة التي يبدأ بها أي بحث تؤثر تأثيراً بالغاً على نتائجه، وأنّ الكلمات التي تُصاغ فيها الفكرة تطبع هذه النتائج بطابعها. ذلك أنّ الفكرة التي يبدأ بها البحث، حتى ولو كانت مجرد تساؤل، تتداعى إلى فكرة معينة، ثم تتداعى هذه إلى فكرة ثالثة فابعة فابعة، وهكذا حتى تكتمل دوحة كبيرة أصلها بذرة طرحتها الفكرة الأولى، ثم نمت خلال النهج الذي تضمنته هذه الفكرة. والكلمة التي تُصاغ فيها الفكرة تولد كلمات من طبيعتها، تصلح لأن تشكل صيغة موازنة للصيغة الأولى، ثم تولد هذه كلمات أخرى، وهكذا حتى تنشأ أكمة واسعة، نبئت من كلمات البداية ونمت خلال الصياغة التي ظهر بها.

معنى الدين.

معلوم أنّ أيّ باحث يتصدى لدراسة الظاهرة الدينية أو الفكر الديني، لابد من أن يبتدئ بوضع تعريف للدين، بيد أنّ هذا التعريف أو ذاك لا تكتمل صياغته من دون دراسة متأنية لتجليات الظاهرة الدينية عبر التاريخ ولدى مختلف الجماعات البشرية، وبالتالي قد لا يتفق وجميع الميول الإنسانية أو النزعات الدينية عند مختلف الأمم والجماعات وفي مختلف العصور والأوقات ما لم يستند إلى تلك الدراسة المتأنية.

وفي هذه الحالة قد يبتعد الباحث عن مسار الموضوعية، في بعض الأحيان، إذ ربما يقدم تعريفاً يعكس مواقف مسبقة له، مضافاً إلى إسقاطاته الخاصة التي يتضمنها هذا التعريف، أو ربما يعكس مواقف وإسقاطات الثقافة التي ينتمي إليها، ونظرتها إلى الثقافات الأخرى.

من هنا يمكن القول أنه ليس بوسع الباحثين وضع تعريف نهائي للدين، إنما بوسعهم وضع تعريف أولي يهدف إلى رسم الإطار العام للدين، دون أن يدعوا الشمول والإطلاق لهذا التعريف أو ذاك.

وعلى هذا الأساس فإنّ تعريف الدين ينطلق من اتجاهات عدة، منها فكرة فوق الطبيعي *super natural* ، التي تشكل أساساً لعدد من التعريفات لمفهوم الدين، تنتظم في مسار يشير إلى كل ما يتجاوز حدود المعارف الإنسانية، ويقع في نطاق السر والمجهول، فالأديان في مفهوم هربرت سبنسر، على قدر اختلافها في عقائدها المعلنة، تتفق ضمناً في إيمانها بأن وجود الكون هو سرّ يتطلب التفسير، من هنا فإنّ الدين بالنسبة إليه هو: الاعتقاد بالحضور الفائق لشيء غامض وعصي على الفهم، كما أنّ للفيلسوف ومؤرخ الأديان الألماني ماكس مولر تعريف ينسجم مع ما ورد عند سبنسر آنفاً، فيقول في كتابه نحو علم للدين: إن الدين هو كدح من أجل تصور ما لا يمكن تصوره، وقول ما لا يمكن التعبير عنه، إنه توك إلى اللانهايⁱ.

وهناك اتجاه آخر يشكل منطلقاً لتعريف الدين، يستند إلى فكرة الألوهة، يمثله جملة من المعنيين بدراسة عالم وتاريخ الأديان، أمثال ماكس رافيل، وشلر ماخر، فالأول في كتابه مقدمة في تاريخ الأديان يقول: إنّ الدين هو اشتراط الحياة الإنسانية بإحساس بالاتصال بين العقل الإنساني وعقل خفي يتحكم بالكون، وما ينجم عن ذلك من شعور بالغبطةⁱⁱⁱ.

أما الثاني فيميل إلى أنّ الدين هو شعور باللانهاي واختبار له، وما نعيشه باللانهاي هنا، هو وحدة وتكامل العالم المدرك، وهذه الوحدة لا تواجه الحواس كموضوع، وإنما تتبئ عن نفسها للمشاعر الداخلية، وعندما تنتقل هذه المشاعر إلى حيز التأملات، فإنها تخلف في الذهن فكرة الله، وإنّ الخيال الفردي هو الذي يسير بفكرة الله إما نحو المفارقة والتوحيد، أو نحو نوع غير مشخص للألوهة يتسم بوحدة الوجود^{iv}.

مما تقدّم يمكن القول أنّ الدين بحقيقته هو عبارة عن مجموعة من القوانين التي تنظم حياة الإنسان

والمجتمع، ويتميز باعتقاد ميتافيزيقي وباحترام للمعبود الذي تكون أوامره قانوناً نافذاً في حق الذين يتمسكون بعقيدته. وبعبارة أخرى فإن الدين الحقيقي واحد؛ لأنه يربط الإنسان بالله، وهو ثابت في قواعده وجوهره، لكنه يختلف في صورته الخارجية. ومن هنا تنشأ الخلافات كما تنشأ الخرافات والبدع.

معنى الفكر الديني.

الدين هو التعاليم الإلهية التي يبشر بها المعصوم (ع)، والتفسير التي يذكرها هو لتعاليمه إن احتاجت تفسيراً، أما الفكر الديني فهو كل فهم لهذه التعاليم يصدر عن أي شخص غير معصوم، وعليه فالدين يمثل المعصوم بصفته ذاتاً حية معبرة، والفكر الديني هو الصيغ المختلفة لفهم النص الديني ودراسة تعاليمه من قبل غير المعصوم.

نشأة الفكر وتطوره.

اندفع الإنسان - نتيجة ميله غريزياً لحب البقاء - إلى العمل من أجل الحفاظ على حياته مما يحيط به من أخطار الوحوش الضارية والطبيعة القاسية والجوع والعري وما إلى ذلك. لذا تراه يسعى جاهداً من أجل تحقيق هذا الغرض الذي استنفذ وقته وجهده، وهكذا أصبح عادة يزاوئها شطراً من حياته.

بعدها توافر لهذا الإنسان من الوقت والجهد ما جعله قادراً على الاستجابة لدوافع الغرائز الأخرى، وفي مقدمتها غريزة (حب الاستطلاع) باعتبارها الغريزة المعبرة عن طموحه في الحياة وآماله وتطلعاته فيها. ومن أهم ما حاول التعرف إليه في هذه المرحلة حقيقة ذاته وطبيعة سلوكه، وخصائص البيئة التي يعيش فيها ونواميس الكون عامة، ومدى ما يمكن أن يفيد منها في حياته، إلى غير ذلك من الأمور التي كان الناس ولا يزالون يحاولون الكشف عنها، في حدود ما لديهم من خبرة وعلم.

ويبدو أن الخيال والوهم - في مرحلة من مراحل الفكر البشري - قد أمد الفكر بصورة من الفروض والتخمينات التي لا واقع لها، والتي كانت - وقتها - مصدراً لحقائق كان لها تأثير مهم في حياة الإنسان. وهذا هو السر في أن تاريخ الفكر ينتظم إلى العلماء والفلاسفة، والأنبياء والشعراء، والعرفاء والمنجمين والكهّان، ومن على شاكلتهم ممن تصدّوا للبحث في ظواهر الكون وتعليل أحداثه، كل بالطريقة المألوفة له، ولا يخفى علينا أن آراءهم وخبراتهم لم تكن متفقة في تعليل حدوث أو تفسير ظاهرة، إنما كان لكل منهم تعليله الخاص به أو تفسيره، وهكذا هو عالم الفكر، كان ولا يزال وسيبقى يسعى جاهداً للحصول على المعرفة من أي مصدر بهدف الوصول إلى المعرفة الحقيقية التي تُعتبر السعادة الحقيقية على رأي الفلاسفة.

وبقدر تعلق الأمر بموضوع بحثنا - الفكر الديني - أقول: إن هذا البحث نشأ منذ نشأة الإنسان تقريباً، ونشأ بطريقة طبيعية ساذجة وأخذ بمرور الزمن يتسع وتتعدد مشاكله وتتعدد، حتى وصل إلى حد كبير من السعة والعق ولا يزال البحث إلى الآن مستمراً.

وبكلمة، فإن وجود الإنسان دعاه إلى أن يسأل نفسه - وهذا طبيعي - من أين أتى هذا العالم؟ وما هدف البارئ تعالى من إيجاده، هل نشأ عن العدم، أم عن وجود سابق؟ وهل هو أزلي لا أول له؟ فكيف إذا تحرك؟ وكيف دبّت فيه الحياة؟ أم أن له علة أولى؟ وإذا كان الأمر كذلك فكيف نشأ عن هذه العلة الأولى؟ أكان ذلك صدوراً وفيضاً أم كان عن خلق وابتداع؟ وسواء كان العالم صادراً عن الله أو مخلوقاً له، فما هي الصفات التي تتصف بها العلة الأولى، وهل تتماشى هذه الصفات مع التنزيه المطلق - ليس كمثله شيء - أم تتجه إلى التشبيه بالله سبحانه يبدان مبسوطان ووجهه وعرش يستوي عليه استواء حقيقياً؟

الدين والفطرة الإنسانية

الدين تنتظم فيه نوازع الوجود الغامضة، وكانت نزعة الإيمان بالغيب، والتطلع إليه هي من الفطرة، باعتبار أن العقول البشرية تسعى إلى إدراك الحقيقة الدينية - بقدر طاقتها - والكشف عن مبادئ الكون ومصادره ومصيره وغاياته. لكن على درجة واحدة من السعي خلال فترات التاريخ المختلفة: في البداية كانت العقول البشرية تقف عند أدنى مبادئ الغيب وأقرب غاياته مكتفية في كل جوانب الظواهر الكونية بأن يلعب من مبدأ يرفعها، وينظمها دون البحث عن منشأ أصل هذه المبادئ، أو عن وجهتها الكلية، ومن هنا نشأت الآلهة. إله الريح، إله الخصب، إله المطر، إله الموت... إلخ، وهناك من العقول البشرية ما رفض الأخذ بالمقاييس الجزئية والتفسيرات النسبية، بل سعى إلى البحث عن الحقيقة الكلية الأزلية التي لا تحويها المعارف والعلوم، وتلك الحقيقة هي التي أكدتها دعوات الأنبياء والمصلحين على مر التاريخ.^{vi}

من خلال ذلك يتأكد الطرح الذي يقول بأنّ الحس الديني حسّ طبيعي عفوي من خلال وحدة الإنسان مع العالم حوله، مع رغبة لامتلاك الكون وتنظيمه تؤدي إلى الاندماج والمشاركة بكل ما للإنسان من نوازع غامضة، وميول غيبية مشدودة إلى المجهول. هذا الميل الروحاني هو بمثابة (فطرة فطر الله الناس عليها لا تبديل لخلق الله)^{vii}. إنها محاولة إنسانية للتخلص من الخوف والشك والاعتراف بالعجز، وبذل الحماية لقوة مثالية جبارة فوق كل خوف وشك وعجز، فالدين هو اليقين الإنساني في ميثافيزيقته، وبواعث وجوده هي بواعث وجود اليقين ذاته والبحث والتساؤل بإلحاح عن العلل والمسببات، ومنذ كان الإنسان في الغابة حاول أن يفسّر حركات الطبيعة الغامضة، فافتراض وجود قوى خفية تحركها، واتفق مع رفاقه على تحديد نوع هذه القوى التي افترض فيها الصفات الإنسانية، فكانت تلك أول فكرة دينية، وأول رابطة غيبية تجمع حولها الناس، ثم استمر تطور البشرية حتى توافق مع تطور اليقين الإنساني وذلك للقضاء على فوضوية قوى الغيب التي دخلت الأديان بفعل تراكم التقاليد والتفسيرات بواسطة فكرة الدولة الدينية حتى أصبحت للدولة سلطة الآلهة القديمة.

إنّ كافة النظم التي لا تعتمد على ركيزة مثالية ميثافيزيقية، بشكل من الأشكال، هي نظم تعاني من فراغ عقائدي، كما أنّ الدين الذي يحاول الابتعاد عن واقع الحياة والتعالى عن يومياتها هو دين منعزل عن حقيقة الأفراد، فليس الدين تلك المفاهيم التي يتجاوزها الإنسان بعهد جمودها أمام التطور، بل هو ذاك الذي يراه أمامه في حنينه الميثافيزيقي ويستعين به وتفسيراته لحل معضلات الحياة.

الدين ضرورة

لابد للناس من دين يوجه دنياهم، ويأخذ بأيديهم لما فيه فلاح الفرد وصلاح المجتمع، إذ ليس على وجه الأرض قوة تكافئ قوة التدين أو تدانيها في احترام القانون وتماسك المجتمع واستقرار نظامه والتنام أسباب الراحة والاطمئنان فيه. الدين في كل مجتمع هو مصدر الترابط الروحي، والتماسك النفسي بين أفراد المجتمع نفسه، وهو الذي يكون وحدتهم الداخلية، كما يصون هذه الوحدة من الضياع. وإنّ مظاهر الفراغ الديني تحمل في طياتها عوامل الفشل والانحيار. وإذا كانت الوثنية قد بادت فإنّ (اللادين) ستنتهي؛ باعتبار أن نزعة التدين فطرة في الإنسان، ولأنّ للدين دوره ووظائفه الهامة، سيما من الناحية النفسية. فالإنسان البدائي أحس في أعماق نفسه بوجود قوة قاهرة علوية، لكنه لم يستطع التوصل إلى وصفها الحقيقي، فترجم عنها بألوان متعددة محسوسة. كما أنّ العقيدة ليست مجرد صلة بين الإنسان وربه وإنما صلة فعالة بحقيقة الواقع والحياة. التدين نزعة في النفس الإنسانية لإحساسها بالعجز والقهر والضعف أمام القوة الغيبية، ولذلك لم تخل أمة من الأمم القديمة والحديثة^{viii} من مظاهر التدين ولو كانت منحرفة، مما يعبر عن نزعة متأصلة بين جميع الناس. يقول برجسون^{ix}: لقد وجدت جماعات إنسانية من غير علوم وفنون وفلسفات، ولكنه لم توجد جماعة بغير دين والواقع أنّ النفس البشرية تجد بهذه النزعة غذاءً نافعاً قوياً لحالات عقلية وإرادية، ذلك أنّ التطور الإنساني من حياة الغابة إلى حياة القانون هو تطور جوهري في التاريخ البشري. فالنقطة الأولى هي بداية الإنسان حيث سيطرت العصبية والقبيلة في الجماعة، والنقطة الثانية هي التي تسود حياة العصر موازين العدل الإنساني، وبين البداية والنهاية كان الدين. من هنا فالتدين يساعد العقل - باعتباره القوة المفكرة - على إرواء تطلعاته وشوقه إلى مصدر الوجود وما وراء المحسوس، فيعطيه الفكرة الصائبة التي تريحه من عناء البحث الطويل وإدانة النظر المرهق دون أن يتمكن من الوصول إلى نتيجة حاسمة.

العناصر الأساسية للدين.

هناك عناصر أساسية للدين وأخرى ثانوية، فالأساسية منها لا يمكن الوقوف على الظاهرة الدينية بشكل واضح بدونها، أما الثانوية فإنها تلعب دوراً حاسماً في تكوين الدين، أو في تعرفنا على الظاهرة الدينية.

فالعناصر الأساسية للدين هي: المعتقد، والطقس، والأسطورة.

أولاً: المعتقد.

المعتقد هو أول أشكال التعبيرات الجمعية عن الخبرة الدينية الفردية التي خرجت من حيز الأنفعال العاطفي إلى حيز التأمل الذهني. ويبدو أنّ توصل الخبرة الدينية إلى تكوين معتقد، هو حاجة سيكولوجية ماسة؛ لأنّ المعتقد هو الذي يعطي للخبرة الدينية شكلها المعقول، الذي يعمل على ضبط وتقنين أفعالها، فبعد تلك المواجهات الانفعالية مع القدسي في أعماق النفس، يتدخل عقل الإنسان من أجل صياغة مفاهيم من شأنها إسقاط التجربة الداخلية على العالم الخارجي، وموضعه القدسي هناك. وهنا يتم فرز موضوعات معينة، أو خلق شخصيات وقوى معنوية، تستقطب الإحساس بالقدس وتجذب به إلى خارج النفس، وبذلك تتكون الصيغ الأولية للمعتقدات، ونهدف إلى ذلك الهيكل السامق الذي ندعوه بالدين.

والمعتقد الديني شأن جمعي بالضرورة، باعتبار أنّ عقول الجماعة تعمل على صياغته، كما تعمل الأجيال

المتلاحقة على صفقه وتطويرة. فما من خبر وصلنا عن أهل الديانات القديمة، يفيد بأنهم أخذوا معتقدهم جاهزاً من جهة ما أو شخص بعينه. فشعوب سومر وأكد - مثلاً - وكنعان ومصر واليونان قد تركت لنا مدونات عن معتقداتها وأساطيرها وصلواتها، دون أن تذكر شيئاً عن صدور دياناتها عن كاهن أو عراف أو متنبئ من أي نوع. وأسفار الفيدا السنسكريتية المغرقة في القدم، ما زالت تمارس تأثيرها العميق على الطوائف الهندوسية في الهند، دون أن يعرف أحد مصادرهما والتواريخ الدقيقة لتدوينها. ويبدو أن القول بأن المعتقد شأن جمعي ناتج عن جملة أسباب في مقدمتها أنه من غير الممكن أن يقوم كل فرد من أفراد الجماعة بصياغة معتقد خاص به؛ لما ينتج عنه من تضارب في سلوك وأفعال الطرفين، بالإضافة إلى أن دوام واستمرار أي معتقد يتطلب إيمان عدد كبير من الأفراد به، وإلا اندثر وفقد تأثيره حتى في نفس صاحبه. من هنا نفهم لماذا يسعى مؤسسو الأديان وأصحاب الفلسفات الكبرى إلى التبشير بأفكارهم بين الناس وحثهم على اعتناقها؛ ذلك لأنهم يجدون في هذا السعي ضمانتهم الوحيدة لحياة معتقداتهم واستمرارها. ويتناسب سعي المبشر طرداً مع مدى اقتناعه بأنه قد وضع يده على الحقيقة المطلقة، ولنا في سيرة (ماني) مؤسس الديانة المانوية التي انطلقت من بابل أواسط القرن الثالث الميلادي خير دليل على ذلك. لقد عاود الوحي السماوي ماني - على ما يذكره أتباعه ومؤرخو سيرته - وهو في الرابعة والعشرين للتبشير بمعتقداته مرتجلاً ما بين الهند ومصر، ولم تهدأ حركته حتى أعدمه الملك الفارسي بهرام سنة ٢٧٦م. وهناك وصفٌ لِماني في الكتابات المسيحية من تلك الفترة، تصفه في تجواله يرتدي سروالاً واسعاً أصفر اللون وعباءة زرقاء ويده عصا طويلة من الأبانوس، متأبطاً تحت ذراعه على الدوام كتاباً خطه بنفسه باللغة البابلية (وهي الآرامية المشرقية في ذلك الوقت).

ثانياً: الطقس.

من الثابت أن الخبرة الدينية تولد حالة انفعالية، قد تصل في شدتها حداً يستدعي القيام بسلوك ما، من أجل إعادة التوازن إلى النفس والجسد اللذين غيرت التجربة من حالتها الإعتيادية، ولعل الموسيقى والرقص الحر كانا أول أشكال هذا السلوك الاندفاعي الذي تحول تدريجياً إلى طقس متقن. ويترافق تقنين الطقس وتنظيمه في أطر محددة ثابتة مع تنظيم التجربة الدينية وضبطها في معتقدات واضحة يؤمن الجميع بها، ويرون فيها تعبيراً عن تجاربهم الفردية الخاصة، وبذلك يتحول الطقس من أداء فردي حر إلى أداء جمعي ذي قواعد وأصول مرسومة بدقة، ويتم ربط الطقس بالمعتقد بدل ارتباطه بالخبرة الدينية المباشرة. ومع ذلك فقد يتعايش هذان النوعان من الطقوس في الثقافة الواحدة، إذ يقوم الطقس الحر جنباً إلى جنب مع الطقس المنظم، بسبب قصور الطقوس المنظمة عن سد حاجة نوع معين من الأفراد ذوي الحساسية الشديدة للتجربة الدينية الفردية. فإذا كانت الصلاة في المعابد وإنشاد التراتيل فيها هي النموذج الأكثر شيوعاً للطقس المنظم، فإن لنا في حلقات الصوفية وما يؤدي فيها من موسيقى إيقاعية ورقص وتواجد، خير مثال على الطقس الحر الذي لا يرتبط بالمعتقدات الجمعية المؤسسة، بل بالخبرة الدينية العميقة المباشرة.

والملاحظ أن المعتقد يلعب دوراً مميزاً في رسم صورة ذهنية للعوالم القدسية. هذه الصور تتسم بالوضوح وقوة التأثير. بيد أن الأفكار وحدها غير قادرة على صياغة دين ما مهما بلغت هذه الأفكار من الوضوح والاتساق. نعم ربما تشكل في أفضل أحوال اتساقها فلسفة، رغم عنايتها الكلية بالمسألة الدينية. وخير مثال على ذلك الفلسفة الأفلاطونية المحدثة، التي تبلورت أفكارها بشكل واضح خلال القرن الثالث الميلادي. فهذه الفلسفة قد جعلت من الإلهيات بؤرة اهتمامها، وكانت أفكارها مهياً لأن تكون أساساً مكيناً لديانة كبرى في ذلك الوقت، ولكنها لم تحقق هذه الخطوة رغم طموحها الضمني لتحقيقها، نتيجة افتقارها إلى تنظيم طقسي، يضع الإنسان في علاقة مع العوالم القدسية التي صاغ المعتقد صورته الذهنية، لذلك نجد أن هذه العوالم بقيت صوراً ذهنية باردة تعيش في عقول أتباع هذه الفلسفة لا في قلوبهم. وهذا يعني أن التحول من الفلسفة إلى الدين - مع الأخذ بنظر الاعتبار أن كل تفكير متسق هو فلسفة - لا يتم عندما يدفعنا المعتقد إلى سلوك وإلى فعل، فتنتقل من التأمل إلى الحركة، ومن التفكير في العوالم المقدسة إلى اتخاذ مواقف عملية منها، فنقترب منها أو نسترضيها أو نسخر قواها لمصلحتنا أو نكف غضبها عنا... إلخ.

نخلص مما تقدم إلى أن المعتقد إن كان حالة ذهنية، فإن الطقس حالة فعل من شأنها إحداث رابطة، وإذا كان المعتقد هو مجموعة من الأفكار المتعلقة بعالم المقدسات، فإن الطقس هو مجموعة من الأفعال المتعلقة بأسلوب التعامل مع ذلك العالم.

ثالثاً: الأسطورة.

الأسطورة كلمة قديمة، وردت الإشارة إليها في المعاجم العربية، وكلمة أساطير قد جاءت من السطر وهو الخط أو الكتابة، وجمعه أسطار، كما هو الحال في سبب وأسباب، وجمع الجمع أساطير. وقد وردت في القرآن الكريم في مواضع منها قوله تعالى: (وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلاً)، مما يعني أن هناك اتهاماً من قبل المشركين للنبي (ص) باستلهامه قصص الأولين المكتوبة.

تجدد الإشارة إلى أن اشتقاق كلمة أسطورة في العربية يقارب اشتقاقاتها في اللغات الأوروبية: فكلمة Myth الإنكليزية والفرنسية وغيرهما، مشتقة من الأصل اليوناني Muthas وتعني قصة أو حكاية، وكان أفلاطون أول من استعمل تعبير Muthologia للدلالة على فن رواية القصص، خصوصاً ذلك النوع الذي ندعوه اليوم بالأساطير. ومنه جاء تعبير Mythology المستخدم في اللغات الأوروبية الحديثة.

ولأن الأسطورة ليست نتاج خيال فردي أو حكمة شخص بعينه، لذلك لا يُعرف لها مؤلف معيّن. إنما هي ظاهرة جمعية تصور تأملات الجماعة وحكمتها وخلاصة ثقافتها، وهذا الطابع الجمعي لا يمنع من قيام الأفراد بإعادة صياغة الحكايات الأسطورية، وفق صنعة أدبية تتماشى وروح عصرهم.

والأسطورة تتمتع بقدسية وسلطة عظيمة على عقول الناس ونفوسهم، مما يعني أن لها سطوة تتمتع بها منذ بداية مراحل التفكير البشري

آلية الوصول إلى الفكر الديني.

معلوم أن كل فكر من الأفكار يعتمد على مصادر رئيسية، تشكل في مجموعها موادّه وأسسّه التي يُعرف بها.

والمصدر الوحيد الذي يعتمد عليه الإسلام - من جهة ارتباطه بالوحي السماوي - هو القرآن، فهو المصدر الرئيسي للنسبة الشاملة للنبي الأكرم (ص) وما يحتويه من الدعوة إلى الإسلام، مع التذكير بأن القرآن الكريم لا ينفي المصادر الأخرى للفكر الصحيح والحجج الواضحة.

والمتتبع بدقة - أثناء قراءته للكتاب العزيز - يستنتج أن القرآن الكريم حدد طرقاً ثلاث أمام قارئيه؛ بهدف الوصول لفهم المعارف الدينية هي: **الظواهر الدينية** - التي تعتبر مصدراً أساسياً للفكر الديني - ، **والعقل**، **والكشف**، الذي يتأتى من الإخلاص في العبودية، أي العبودية لله سبحانه، المستندة إلى تهذيب النفس والتأمل والتركيز العقلي الناتج عن استجماع قوى الفكر، بهدف الوصول إلى معرفة الحقيقة المطلقة - الله تعالى - معرفة ذوقية مباشرة. بيد أن هذه الطرق الثلاث تتفاوت فيما بينها من جهات عدة:

الأولى: أن الظواهر الدينية بيانات لفظية، تُستفاد من أبسط الألفاظ، وهي متناول أيدي الناس، وكلّ يستفيد منها حسب قدرته وفهمه واستيعابه،^x بخلاف الطريقين الآخرين، إذ يختصان بجماعة خاصة، ولم يكونا لعامة الناس.

الثانية: أن العقل هو الطريق الموصل إلى أصول المعارف الإسلامية وفروعها، ومنه يمكن الحصول على المعارف الأخلاقية، وكذا الكليات للمسائل العملية - فروع الدين - إلا أن جزئيات الأحكام ومصالحها الخاصة بها لم تكن في متناول العقل، وخارجة عن نطاقه، وهكذا طريق تهذيب النفس؛ المؤدي إلى انكشاف الحقائق، وهو علم لدني من قبل الله تعالى. هنا لا بد من التأكيد على أن من العسير على أي إنسان إدراك ماهية الحقائق التي تنكشف عن هذه الموهبة الإلهية لبعض البشر، باعتبار أن طريق تهذيب النفس تجربة روحية خالصة، لا يدركها ويتذوقها إلا صاحبها الذي لا يستطيع وصفها بعبارة معينة، ولذلك يصرح أصحاب هذا التيار بأن لغتهم لغة الرمز والإشارة، لا لغة التصريح والعبارة، باعتبار أنهم تحت رعاية الله تعالى مباشرة، فينكشف لهم كل ما يريده الله تعالى لا كل ما يريدونه.

الطريق الأول: الظواهر الدينية

كما هو معلوم، فإن القرآن الكريم - والذي يعتبر مصدراً أساسياً للفكر الديني - قد أبان لقارئيه حجية واعتبار ظواهر الألفاظ، وهذه الظواهر للآيات قد جعلت أقوال النبي الأكرم (ص) في المرحلة الثانية بعد القرآن مباشرة، وتعتبر حجة كالأيات القرآنية، ويؤيده قوله تعالى: (وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون)^{xi}، وقوله تعالى: (هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين)^{xii}.

فالقرآن تضمن أحكاماً وقوانين تشريعية من جهة، وجوانب اعتقادية وأخلاقية من جهة أخرى، فالأحكام والقوانين التشريعية - كالصلاة والصوم والمعاملات وسائر العبادات - أسندت تفصيلاتها إلى السنة الشريفة، وكذا الجوانب الاعتقادية والأخلاقية: فإنه وإن كانت مضامينها يفهمها العامة، إلا أن إدراك تفاصيلها وفهم معانيها يستلزم إيضاحها بشكل مبسط من قبل الرسول الأكرم (ص) ومن هم الامتداد الروحي والطبيعي له (ص)، أهل بيته

الكرام عليهم السلام، الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً، وهم عدل القرآن بنص حديثه(ص): (إنّي تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي، ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا من بعدي أبداً)، مضافاً إلى جملة من أعلام الصحابة(رض) أمثال حبر الأمة عبد الله بن عباس، وعبد الله بن مسعود وغيرهما.

وعليه فالسنة الشريفة إن لم تكن حجة كالكتاب الكريم، فإنه يتعذر على المكلف فهم تفاصيل مهمة من الأوامر الإلهية، سيما الصلاة والصيام، كما أنه يتعذر عليه فهم عقيدته دون إيضاح ما يستثير في نفسه من تساؤلات معينة، كالأيات الخبرية التي يُشعر ظاهرها بأنّ الله سبحانه وجهاً وعيناً ويداً وما إلى ذلك من الأعضاء، وما يتطلب ذلك من تبسيط يكون بمستوى فهم العامة، مصداقاً لقوله(ص): إنا معاشر الأنبياء أمرنا أن نكلم الناس على قدر عقولهم.

إذن الظواهر الدينية - والتي تُعدّ أحد مصادر الفكر الديني - على قسمين: الكتاب والسنة.

الطريق الثاني: المباحث العقلية (التفكير العقلي والفلسفي والكلامي).

وردت في القرآن الكريم أكثر من ثمانين آية مباركة، تحت الإنسان على التدبر والتفكير في نفسه والعالم، وصولاً إلى التأمل في خالقه العظيم. قال تعالى: (وفي أنفسكم أفلا تبصرون)^{xiii}، (إنّ في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار)^{xiv}، (أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد)^{xv}. مما يعني أنّ القرآن الكريم يؤيد التفكير العقلي ويعتبره جزءاً من التفكير الديني؛ ذلك أنّ التفكير العقلي بعد أن يسهم في تثبيت صديق نبوة النبي، فإنه يجعل النصوص الدينية - كتاباً وسنة - من موارد الحجج العقلية.^{xvi}

والحجج العقلية التي يثبت بها الإنسان نظرياته، مع ما لديه من فطرة إلهية تنقسم إلى قسمين: البرهان والجدل، فالبرهان حجة، ومقدماته واقعية، وإن لم تكن مشهورة أو مسلمة، وبعبارة أخرى: هي أمور يدركها الإنسان بدهاء، مع ما عنده من فطرة إلهية، ويصادق عليها، كما نعلم أنّ العدد ٣ أصغر من العدد ٤. فهذا النوع من التفكير يدعى التفكير العقلي، وإذا حصل هذا التفكير وحصل في كليات العالم والكون - كالتفكير في بدء الخليقة وعاقبة العالم - فهو ما يسمى بالتفكير الفلسفي.

أما الجدل فهو حجة إذا حصلت مقدماته من المشهورات والمسلمات، كما هو متعارف بين معتنقي الأديان والمذاهب: فهم يثبتون آراء ونظريات مذهب ما مع الأصول المسلمة لذلك المذهب.

القرآن الكريم - هنا - يستعرض الطريقتين، وهناك آيات مباركات في الكتاب العزيز أشارت إليهما، فهو - القرآن - من جهة يأمر بالتدبر والتفكير المطلق في كليات عالم الطبيعة وفي النظام العام للعالم، وكذا في النظام الخاص، مثل نظام السماء والنجوم والليل والنهار والأرض والنبات والحيوان والإنسان وغيرها، ويثني على التبعات العقلية ثناءً كثيراً. ومن جهة أخرى يأمر القرآن الكريم بالتفكير العقلي الجدلي، المعبر عنه بالمباحث الكلامية، بشرط أن يتم ذلك بأحسن وجه ممكن، وذلك لإظهار الحق بدون لجاجة، وأن يكون مقروناً بالأخلاق الحسنة، كما في قوله تعالى(إدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة، وجادلهم بالتي هي أحسن).^{xvii}

الطريق الثالث: الكشف

معلوم أنّ الإنسان مؤلف من جوهرين: بدنه ونفسه، يقابلهما ثنائية العالم: العالم المادي المحسوس، الكثيف المظلم، الفاني بتحلله إلى عناصر، والعالم الروحاني، المنزه، البريء، النوراني الخالد.

جسد الإنسان ينتمي إلى هذا العالم، فهو مادي مثله، محسوس كثيف، مظلم فان بتحلله إلى العناصر التي تكوّنه، أما نفسه فهي قبس من عالم الملكوت، إنها روحانية، منزّهة، برينة، نورانية خالدة.

وبمقدار تعلق الأمر بالنفس، فإنّ البارئ تعالى أمر الناس في آيات عديدة بالتدبر في كتابه الكريم، تدبراً بعيداً عن الفهم والإدراك السطحي للقرآن، وأشار في العديد من آياته إلى أنّ في عالم الطبيعة آيات ودلالات له جلّت قدرته. فلو تأملنا وتدبرنا معنى الآية والدلالة، يتضح أنّ الآية والدلالة هي التي تشير إلى شيء آخر لا إلى نفسها، فعلى سبيل المثال: إنّ الذي يرى الضوء الأحمر المشعّر بالخطر، فإنه مع مشاهداته للضوء، يتبادر إلى ذهنه الخطر ذاته، ولا يلتفت إلى الضوء نفسه، وإذا ما فكر في الضوء نفسه، أو ماهية الزجاج أو لونه، فذهنه يصوّر له الضوء أو الزجاج أو اللون، ولا يصوّر له مفهوم الخطر. فإذا كان مفهوم العالم وظاهره، آيات ودلالات لإخلاق العالم، فإنّ وجودهما ليس مستقلاً، ولو شوهدت بأي شكل أو أية صورة، فإنما ترشد إلى وجوده سبحانه.

والذي ينظر إلى هذا العالم بهذا المنظار، ووفقاً لتعاليم القرآن الكريم وهدايته، لا يرى إلا الله سبحانه، وبدلاً من أن يرى جمال العالم، فإنه يرى جمالاً أزلياً غير متناه، وهذا العالم تجلّ لهذا الجمال الأزلي، عندئذ يهب حياته، وينسى ذاته، ويفنى في حب الله جل شأنه.

هنا يرى العرفاء^{xviii} أنّ إدراك الحقيقة المطلقة - الله تعالى - يكون بالكشف والذوق والمشاهدة، ويتم ذلك

بمجاهدة النفس وتنزّرها عن أدران الوجود، والارتقاء بها عن علائق المادة ولواحقها^{xix}. وهذا يعني أنّ الكشف علم وهبي لا كسبي، يأتي من الإلهام والإلقاء في القلب، أي أنه لا يصدر من معلم أو تأمل عقلي أو خبرة حسية، فهو يقابل العلم الذي يجيء عن طريق البرهان العقلي عند الفلاسفة والمتكلمين معاً. والكشف لا يحصل إلا للصفوة الخُص، ويختص بالعلوم الدينية وما يتصل بها، كمعرفة الله تعالى وصفاته، وحقيقة النبوة والوحي والرسالة، والحياة الآخرة، وصفات الجنة والنار، وأسرار العالم وخلقه من بدايته إلى نهايته، ومعرفة الخير والشر، وحقيقة الإنسان والغاية من وجوده، وهذه الحقائق في علم الله تعالى تُعرّف بالقلب لا بالعقل؛ باعتبار أنّ أقرب الحقائق إلى الإنسان نفسه التي بين جنبيه، وهو عاجز عن إدراكها، فكيف يقدر على معرفة الحقائق البعيدة عنه، وعن الطبيعة بكاملها. كما أنّ نظر العقل يتبع استعداد الناظر، ويختلف باختلاف ظروفه وملابساته.

العوامل المؤثرة في صياغة الفكر الديني ١. البيئة.

الإنسان منذ طفولته ونعومة أظفاره يبدأ بتقليد من يحيط به في البيت والأسرة والمجتمع، وبالأخص تأثير الأبوين والإخوة في اللغة والتفاهم والسلوكية العامة، فضلاً عن تأثير وسائل الإعلام والوسط الفكري الذي يعيش فيه.

وبقدر تعلق الأمر بالفكر الديني، فإنّ الفكر العقائدي يترك انعكاساته المباشرة على سلوكية الفرد ومنهجية حياته مهما كانت نوعية الاعتقاد، فلا بد من أن نعرف مسبقاً أنّ للعقيدة - أيّا كانت - لها آثارها الواضحة على الفرد نفسياً وسلوكياً على مستوى الشعور أو اللاشعور. فكل فكرة بل كل مدرسة عقائدية تسعى لتربية الفرد وصياغة شخصيته - كهدف رئيسي لها - وهذه التربية تكون وفقاً لنظريتها ورؤيتها للحياة، لتنتج العنصر المبدئي فتأخذ بيد الفرد لتدخله في مصحات معدّة سلفاً كي تغسل عنه السلبات والأدران العالقة في ذهنه - حسب رؤيتها - فتغيّره تغييراً جذرياً ليخرج برؤية جديدة للحياة وسلوكية جديدة أيضاً وبطموحات مستجدة رُسمت له سابقاً^{xx} ومع استبعاد العنصر الاقتصادي، فإنّ العلم انتهى إلى أنّ الإنسان يتأثر في تكوين شخصيته بالفكر الذي يعتنقه والقيم التي يؤمن بها، كي يتأثر باللغة التي يعبر بها عن نفسه.

فالمسلم لا يشرب الخمر لأنّ القرآن أمره باجتنابها. والمسيحي يشربها؛ لأنه يعرف من الإنجيل أنّ المسيح حول الماء إلى خمر في عرس قانا، وأنه قال أنّ أعداءه يصفونه بأنه (أكول وشريب خمر)^{xxi}، والمسلم لا يأكل لحم الخنزير لأنّ القرآن يحرمه بينما يأكله المسيحي بحجة أنّ الإنجيل لا يحرمه، فضلاً عن أنّ القانون الكنسي لا يحرمه، وقد تكون الظروف الاقتصادية للمسلم أشدّ دفعا له كي يشرب الخمر أو يأكل لحم الخنزير، لكنه رغم هذا يمتنع عنهما بحكم تأثير القيم التي يؤمن بها، والتي قد تكون في بعض الأحوال - بل في كثير منها - أشدّ تأثيراً من الظروف الاقتصادية التي يعيش فيها.

ومن جانب آخر، فإنّ للغة تأثيراً بعيد المدى على الشخصية، ذلك أنّ اللغة التي تقول ((إنّ القطار فاتني)) لا بد أن يكون لها تأثير على شخصيته يخالف التأثير الذي تُحدثه لغة تجعله يقول ((لم ألق القطار)). فاللغة الأولى تجعل الإنسان سلبياً يدركه القطار أو يفوته، فلا فضل له في اللحاق ولا عذر في التخلف، واللغة الثانية تجعل من الإنسان إيجابياً هو الذي يدرك القطار وهو الذي يتخلف عنه، فإليه يعود الفضل في اللحاق، وعليه يعود اللوم في التخلف.

لقد كان من أهم نتائج الفكر الديني للإسلام أن رسم صورة محدّدة للشخص المسلم، فأصبح من اللازم أن يوافق هذا الشخص بين طبيعته الفياضة وبين القوالب المرسومة. ولما لم يفلح توزّعت شخصيته بين شخصية معيارية يرسمها لنفسه ليظهر بها أمام الناس، موافقاً للقوالب المتعارف عليها والمعايير المحدّدة لها، وشخصية حقيقية تمثل طبيعته الحقّة واتجاهاته الذاتية. وبين الشخصية المعيارية والشخصية الحقيقية تمزّقت الشخصية الإسلامية، فأصبح ظاهرها غير باطنها وقولها غير فعلها. وبهذا امتلأت المدن بالمساجد، وحفلت بدور اللهو والمجون!!! وبدا الرجال في أسرهم أو في أعمالهم قاسين بلا بشاشة ولا تبسّط وهم في رُوحاتهم ذوو تهتك وخلاعة، وأمسك الناس في أيديهم بالمسابيح وهو يحتفظون في بيوتهم بالخمور، ودعا الداعي إلى الفضيلة والخلق الكريم وهو مثال للردائل وسوء الخلق!!!، وعاب الأفراد على غيرهم زلاً سيراً وقعوا فيه بينما هم يقترفون كبائر الإثم.

٢. نسبية الإمام بعلوم هذا الفكر.

الإمام بالعلوم ذات الصلة بالفكر الديني وما شابهه، أمر يتسم بالنسبية. باعتبار أنّ ذلك يعتمد على سعة الإطلاع ومدى الاستيعاب.

والفهم الحقيقي لجوهر الدين إنما يكون وفق التطبيق الذي شرّعه القانون الرسالي. والفهم والتطبيق يتدرّج بين حدّين: حدّ أدنى وحدّ أعلى. وما بين الحدّين حدود متفاوتة تقسم معتق الرسالة إلى درجات متفاوتة تتعلق بحركة العقل في عملية فهم مغزى القانون الرسالي وتطبيقاته على الفرد أو تطبيقاته على المجتمع. والحدود التي ذكرناها

ما بين الأدنى والأعلى هي التي تقسم حملة الرسالة إلى فئات ابتداء من الذين يمسّون القانون الرسالي مساً خارجياً، وانتهاء بأولئك الذين تكون الرسالة جوهر وجودهم، وجوهر وجودهم هو الرسالة. ويعتمد هذا في مقاييس التطرف وعدمه، ليس على عملية الإيغال في الفهم الرسالي أو مسه خارجياً بل أن هنالك عاملاً مهماً يتدخل في أن يصبح الرسالي ما يطلق عليه بالمتطرف أو عدم المتطرف أو المعتدل.

هذا العامل يتعلق بعقلية الحامل ومدى سلاسة وصرامة فهمه، ومدى تحمله هو للقانون الرسالي في الإيمان والتطبيق؛ لأنّ عقليات البشر تتفاوت بتفاوت تركيبهم الداخلي وبتفاوت نضوجهم العقلي، وبتفاوت بيئة أخذ المفهوم الرسالي التي يؤثر فيها عامل الزمان والمكان والشخص. إذ أنه قد تُحمّل القوانين الرسالية فوق طاقتها، فتتبدّل من حيث كونها سهلة سلسلة بسيطة متعلقة متسامحة إلى كونها صعبة مستعصبة لا تمت إلى جوهرها القانوني بصلة، ولا تمت إلى كون الدين إنما يعتنقه الأفراد من أجل تهذيب شخصياتهم وتشذيبها، وجعلهم ينظرون إلى المجتمع بمنظار الرأفة والرحمة والتحنن والتآلف، مما ينبئ عن فهم خاطئ للنص الديني.

وعليه فالفهم الخاطئ للنص الديني متأثّر من التمسك بالأسلوب وحده، لا بطريقة للتعبير فحسب، بل كوجه من وجوه إدراك الذات. فلقد نزل القرآن بلغة العرب وأساليبها وعمد على تحديدهم فيها. وبعد استقرار الإسلام، لم يدرك العرب أن نزول القرآن في عبارات ذات صبغة شاعرية وآيات متفصلة كان لأسباب تخدم أهدافاً محدّدة هي: إعجاز العرب بأسلوبهم، وصبّ الإيمان صباً في نفوسهم، ومعالجة مواضيع متفرقة، والتنويع في البيان تبعاً لظروف الحال. فالقرآن - ككتاب دين يخاطب أناساً ذوي صفة شعرية - لم يكن من الممكن أن يتبع أسلوب البناء التركيبي لأفضية علمية، خاصة مع اختلاف الأمور التي عاجها من قصص ودين وتشريع.

وكان القيمين بالعرب - بعد أن نزل القرآن - أن يتخذوا من روحه وآياته مادة يقيمون بها أبنية كاملة تتضمن تنظيراً للسياسة والاقتصاد والعلم والفن والأدب، غير أنهم لم يفعلوا ذلك.

٣. قابلية الشخص على صياغة الخطاب (شروط الباحث العلمية).

لا بد لمن يتصدى أو يسهم في صياغة الخطاب الديني، من أن يتسم خطابه بالموضوعية والعقلانية. وإذا كان الأمر كذلك يحق لنا أن نستغرب من خطاب يمجّد من أصاب ومَن أخطأ في حق الأمة على حد سواء، والكل ماجور مهما فعل!!! وهذا مذهب ابن خلدون وابن كثير وغيرهما من المؤرخين. إذ أقرّوا بأن الجميع حتى هرون العباسي وبعض أبنائه كانوا على صواب. وأنّ المأثور عن الأسلاف من ممارسات من لدن وفاة الرسول الأكرم (ص) حتى بني العباس هو السياسة الشرعية التي على المسلم ألا يترك التمسك بعروتها. وهذه الإجابة تقضي بنا إلى نتيجة حتمية هي أن الإسلام ليس فيه نظام سياسي محدد، ولا القيادة يمكن تعيينها أو تنصيبها بدقة، وأنّ أفعال الجيل الأول على وجه الخصوص من قتل لبعضهم، وسبي للمسلمات، وهدم للكعبة وهتك حرمة الصحابييات واغتصابهن، وقتل وسبي لأبناء الرسول (ص) وبناته كان حلالاً مشروعاً، ومَن فعلوه ماجورون حتى وإن أخطأوا في ذلك.

ولو تأمل باحث موضوعي هذا الخطاب أو المنهج لاستنتج أن القائل به قد فقد المنهج التحليلي السليم، وانساق وراء هزات العواطف، وأغلب مشايخنا مهرة في هزّها، ليتبعها فيما بعد خطوة أكبر تتمثل في تكفير كل من حاول أو يحاول الإجابة بشكل مختلف عن إجابتها. وهكذا ظلت الأمة دون فكر محدد، تريد أن تصلح حاضرها في الوقت الذي تخجل فيه من أن تشير بإصبعها إلى ما كان من ماضيها يستحق الإصلاح.

وانتقلت وجهة النظر العاطفية من صلب إلى صلب، وأنزلوها منزلة العقيدة، فإذا بها تؤثر على الفكر الديني بشكل عام، فدخل في دوامة المتناقضات.

وكان من نتائج الدخول في هذه الدوامة، أن تسرّبت مفردات القمع والإرهاب إلى الفكر الديني، مما أدى إلى تغيب العقل وإغلاق نافذته، وهذا كان أكبر نكبة - على حد تعبير رفعت السيد - ابتلي بها الإسلام في تاريخه وتاريخ من عملوا على جمود الفكر الديني تحت أي مسمى^{xxii}.

كما كان من نتائج ذلك، غياب العقلية الفذة التي حرص القرآن الكريم على تأكيدها، لذا نرى أن (العقلية البدائية) قد برزت مرة أخرى، تلك العقلية التي يصفها بريل بأنها^{xxiii}:

أ. انفعالية (بمعنى أن البعد العاطفي المبالغ فيه سلباً أو إيجاباً هو المسيطر).

ب. لا تسببية (بمعنى أنها تعطي للظواهر أسباباً خارجية عنها).

ت. لا عقلانية (بمعنى افتقاد صلة الوصل بين المعطيات والنتائج).

هذه العقلية عندما تنتشر في أوساط المسلمين، لا يمكن أن ينتج عنها إلا هذا الإرهاب الفكري والقمع الجسدي لكل صوت يرتفع بالاحتجاج والرفض لتلك العقلية التي تركت النصوص خلفها وانشغلت بالحواشي والهوامش والشروح، وأصبحت هي النصوص الصحيحة، وأصبح القول بحقيقة واحدة - كما يقول د. عزيز

العظمة - ليس في الواقع إلا تطلعاً لمصادرة الحقائق باسم من يعمل على التفرد بالسلطة الثقافية والتأله في السلطة السياسية^{xxiv}. خلاصة الكلام أن الانغلاق والنظر من زاوية أحادية الجانب، يعني رفض كل ما هو آتٍ من الآخر ومفيد، والحال أن لا بأس من التفاعل معه في ظل الانفتاح على الحضارات الإنسانية الأخرى والاستفادة منها.

٤. صدق تلقي الخطاب عند القارئ ونسبية فهمه.

الاستبداد والفكر الديني.

لو تأملنا أية صياغة لفكرة دينية معينة، لوجدنا أنها تسعى جاهدة لبلورة الإنسان وفقاً لرفعته وتنزيهه في هذه الحياة، ذلك أن الأديان قاطبة تهدف إلى التكامل الإنساني.

والإسلام باعتباره خاتم الأديان، يمتاز بوضوح خطابه وسلاسته، مما يؤدي إلى تقبل الطبع البشري له. فضلاً عن أنه يراعي ظروف كل مرحلة عمرية يعيشها الإنسان.

وإذا ما علمنا أن الحرية والتقدم هي صناعة إلهية في الإنسان، أمكننا أن نتلمس مدى المنافرة ما بين التكتلات الضاغطة على حياة الفرد والمجتمع وذلك الطبع الذي جُبِلَ عليه الفرد الإنساني.

والظاهر أن كنه الاستبداد، القائم على سلب الحرية الفردية أو الاجتماعية، ناتج عن انحراف يصيب طبع فرد أو جماعة لها سلطة معينة في محيط معين. بيد أننا يجب أن نفهم بأن هذه الانتكاسة في الطبع البشري من قبل المستبد إنما ترجع في بعض جزئياتها إلى التواء في فطرة المستبد، تخلق منه نموذجاً إنسانياً سيئاً. فإذا أضيفت إليه سلطة اتخاذ القرار فحينئذ تقع الطامة الكبرى في خلق المجتمع وإجباره على مسلك واحد من دون حيدان يميناً أو شمالاً كي يؤسس فكرة خارجة عما يراه المستبد.

خلاصة القول، لا بد أن نعلم بأن الفكر الإسلامي لا يدلي بدلوه في أي موضوع صغير يتعلق بالإجبار في العقائد؛ لأن المبدأ الذي يستند إليه وفقاً لدستوره (لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي)^{xxv} باعتبار أن العرض الإلهي الملزم للفطرة يقرر (فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر)^{xxvi} الذي يليه الإخبار الذي يترتب على هذه الإساءة الإنسانية كتوضيح لنتائج الفعل الإنساني (إننا أعتدنا للظالمين نارا أحاط بها سرادقها وإن يستغيثوا يُغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه)^{xxvii}.

أثر التعصب في صياغة الفكر الديني

التعصب ظاهرة قديمة في التاريخ البشري، تظهر ملامحها في أعمال عدائية تمارسها مجموعة ضد أخرى، أو أتباع دين أو مذهب ضد أتباع دين أو مذهب آخر.

وتتجلى خطورة التعصب حين يتخذ شكلاً عدوانياً. نعم من الممكن أن يكون التعصب محل اعتزاز بقومية أو دين أو مذهب أو عقيدة سياسية، شرط أن لا يتجاوز إلى كراهية الآخرين واحتقارهم والاستعلاء عليهم؛ لأن ذلك أمر مذموم ومستقبح.

إذن: فالتعصب قد يكون إيجابياً، حين يهتم الإنسان ببني جنسه، أو ببني وطنه، أو بدينه، أو بمذهبه، فيؤكد من خلال تعصبه هذا على المزايا التي تتصف بها جماعته أو الجهة التي ينتمي إليها، ويحاول كسب النفع لها، منة دون أن يحاول النيل من الآخرين أو الانتقاص منهم. بينما نجد أن التعصب السلبي هو الذي يؤدي إلى استبعاد الآخرين وكراهيتهم، والتعالي عليهم. وقد عانت الإنسانية من الجانب السلبي للتعصب؛ لأنه يمثل التحامل على الآخرين وكراهيتهم واحتقارهم^{xxviii}.

ولعل من نافلة القول أن ظاهرة التعصب الديني أصبحت تتخذ أشكالاً عدوانية غاية في الخطورة، سيما إذا ما كان ولاية الأمر والساھرون على المصالح العامة للرعية - كما يدعون - يتبنون هذا المنهج، أي أن التعصب الديني عندما يتخذ طابعاً مؤسسياً، فإن ذلك في غاية الخطورة، ذلك أن أمل الأمة هو ولي أمرها، فما بالك أن ينحاز هذا الولي أو القائد الضرورة لصالح فئة على حساب الفئات الأخرى!!!

والتاريخ حافل بأمثال هؤلاء ومواقفهم الغريبة، فجيوش الفرنجة حين سارت تحت راية الصليب، ادّعت أنها تحرر الأرض المقدسة من الكفرة!!! وفرنسا حين شنت حملتها ضد رعاياها من البروتستانت المناهضين للمذهب الرسمي للدولة، قامت بإجلائهم عن أراضيهم ونزع ممتلكاتهم عنهم.

وفي تاريخنا الإسلامي نماذج من ولاية أمر مزيقين! ساندوا تيارات معينة على حساب أخرى؛ فالأمويون - مثلاً - وخصوصاً معاوية (ت ٦٠ هـ) وابنه يزيد (ت ٦٤ هـ) - ساندوا الجبر وشجعوه واحتضنوه، ليكون لهم سنداً في تثبيت حكمهم^{xxix}.

أما العباسيون فالأمون (ت ٢١٨ هـ) مثلاً ساند المعتزلة في خلق القرآن، بل قرّبهم إليه، كما هو المعروف من تقرّيبه ثمامة بن الأشرس وابن أبي داود (ت ٢٤٠ هـ). وجعل مذهبهم هو المذهب الرسمي في عهده وعهد

خليفته المعتصم (ت: ٢٢٨هـ) والواثق (ت: ٢٣٣هـ). والنتيجة الحتمية لذلك هو اختلاط العقائد بالسياسة. وهذا ما يتجلى بأوضح صوره في مسألة محنة الإمام أحمد بن حنبل (ت: ٢٤١هـ). وما تعرض له من الحبس والجلد نتيجة رفضه القول بخلق القرآن^{xxx}.

هذه التصرفات ضد قادة الفكر، لا بد وأن تتحمل السلطة السياسية المسؤولية الكاملة عنها ***، رغم اشتراك بعض المعتزلة المحسوبين على البلاط العباسي فيها أمثال ثمامة وابن أبي داود. عندما استعدوا الدولة على كل مخالف للقول بخلق القرآن.

ولكن عندما تدور الدوائر على المعتزلة بعد حين يتحول مصطلح (التأويل) في الفكر الديني الرسمي إلى مصطلح (مكروه) لحساب (التفسير) وفي هذا التحول إشعار بمحاولة مصادرة كل اتجاهات الفكر الديني المعارضة. وهذا ما نلمسه في مناصرة المتوكل (ت: ٢٤٧هـ) لأهل الحديث على حساب التيارات الأخرى عندما نادوا بضرورة الوقوف عند النص وعدم تبني منهج التأويل. مما يعني تضيق دائرة العقل. الأمر الذي أدى إلى ظهور نمط من التفكير يسود فيه التقليد دون الاجتهاد. والوقوف عند النصوص دون التعمق في مغازيها ومراميها، والنظر إلى الفلسفة والبحث العقلي نظر البغض والكراهية^{xxxi}.

نتائج:

خلاصة الأمر أن الدين وضع إلهي ثابت، ومقدس، ومتسام، ومتعال، يتميز - في الرؤية الإسلامية - عن الفكر الديني، الذي هو اجتهادات بشرية - ظنية - والذي يمثل رؤية العلماء والمفكرين للوحي وللكون، ولعلاقة الأحكام بالواقع الذي يعيش فيه هؤلاء المفكرون والعلماء. فالتمييز بين الدين والفكر الديني ضرورة لتمييز الإلهي عن البشري، والمقدس عن ما لا عصمة له - ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً^{xxxii} - كما هو شرط للتطور الذي يواكب المستجدات والمتغيرات. ومن هنا تتلخص خدمة الدين في عصرنا هي التمييز - بشجاعة - بين جوهر الدين كشأن مقدس ومتسام، وبين تصورات الإنسان عنه، والتي هي أمر محدود ونسبي ويدركها التغير. وبذا تظل للدين منزلته المقدسة في أعماق أفئدة المؤمنين، وتفتح - من جهة أخرى - آفاق التحول الإيجابي في الفكر الديني.

ⁱ H. Sencer, First Principle P (Queted in, Durheim.Emile, The Elementary Forms of Religious Life P)London, / ,Free Press,New York,

ⁱⁱ Max Muller, Lntroduction To The Science of Religion P. (Queted in ;E. Durkheim, op.cit, P

ⁱⁱⁱ M.Reville, Prolegomena To The History of Religions, P (Queted in; E. Durheim, The Elementary Forms, P)

^{iv} B.A.Grrish, F.schleirmacher(in: Encyclopedia of Religion, V. , P)

^v العقاد، عباس محمود: الله، دار المعارف، القاهرة، ط ١٩٦٩، ص ٦٥.

^{vi} ذكرت الكتب المقدسة - القرآن، التوراة، الإنجيل - أسماء العديد من الأنبياء، وهناك العديد من المصلحين الذين لم تذكرهم هذه الكتب وكان لهم دور بارز في التاريخ

^{vii} سورة الروم: آية ٣٠.

^{viii} الشهرستاني، محمد بن عبد الكريم: الملل والنحل ١/ ٤٨.

^{ix} برجسون، ١٨٥٩ - ١٩٤١: ولد في باريس، اختار الفلسفة وعين مدرّساً لها، بدأ مادياً وبعدها أنكر قول الماديين بأن الحياة مؤلفة من ظواهر منفصلة، جاءت رسالته الدكتوراه (محاولة في الوقائع المباشرة للوجدان) معلنة لهذا الإنكار بقوة، ومنذ ذلك اليوم كان زعيماً روحياً له مؤلفات مثل (التطور الخالق) و(ينبوعا الدين والأخلاق) و(الطاقة الروحية)، يوسف كرم: تاريخ الفلسفة الحديثة، ص ٣٤٨.

^x من هنا يتضح لنا قول الرسول الأكرم (ص): إنا معاشر الأنبياء أمرنا أن نكلم الناس على قدر عقولهم. راجع الصدوق: أمالي الصدوق ص ٤١٩، الحرائي: تحف العقول ص ٣٧.

^{xi} سورة النحل: آية ٤٤.

^{xii} سورة الجمعة: آية ٢.

^{xiii} سورة الذاريات: آية ٢١.

^{xiv} سورة آل عمران: آية ١٢٠.

^{xv} سورة فصلت: آية ٥٣.

^{xvi} خير شاهد على ذلك: دليل آية التمانع (ولو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا)، وحديث الإمام الصادق (ع) مع أبي شاعر الديصاني عندما استدلل له على حدوث العالم بالبيضة.

- xvii .سورة النحل: آية ١٢٥.
- xviii .العارف: هو الواصل إلى الله بنفسه لا ببدنه، والحق تعالى متمثل في نفسه تمثّل المعشوق في ذات العاشق.
- xix .حسن عاصي: التصوف الإسلامي، مؤسسة عز الدين: ط١، بيروت، ١٩٨٤، ص ١٦.
- xx .محمد جواد مالك: العقائد الإسلامية ص ١٣.
- xxi .إنجيل متى: الإصحاح الحادي عشر: ١٨، إنجيل لوقا: إصحاح ٧: ٣٤.
- xxii .رفعت السيد: المتأسلمون ص ١٥٨.
- xxiii .محمد فتحي: العاطفة الهستيرية ص ٢٠٥.
- xxiv .عزيز العظمة: العنف الأصولي، مواجهات السيف والقلم ص ٢١.
- xxv .سورة البقرة: آية ٢٥٦.
- xxvi .سورة الكهف: آية ٢٩.
- xxvii .سورة الكهف: آية ٢٩.
- xxviii .فتحي عبد الرضا الجوارى: آراء في التعصب والتسامح، مقال منشور في جريدة العدالة، الثلاثاء، ٢٣/١٢/٢٠٠٣.
- xxix .يقول أحمد أمين: وبنو أمية كانوا يكرهون القول بحرية الإرادة لا دينياً فقط، ولكن سياسياً؛ لأنّ الجبر يخدم سياستهم. راجع: ضحى الإسلام، مطبعة لجنة التأليف، القاهرة، ط ٦، ج ٣ ص ٨١.
- xxx .د. رؤوف الشمري: التأويل، النقل، العقل. إشكالية التوفيق، مجلة فضاءات، ليبيا، العدد ٩، ٢٠٠٣م، ص ١٢.
- xxxi .تفاصيل أكثر حول دور السلطة في اتساع شقة الخلاف، راجع المصدر السابق: ص ٥١ — ٥٣.
- ٣٣ سورة النساء: آية ٨٢.